

فصلية اللسان المبين (بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكمة)

السنة السابعة، المسلسل الجديد، العدد الثالث والعشرون، ربيع ١٣٩٥، ص ٩٢-٧٣

رمزية الليل في الأدب الجبراني *

صادق فتحي دهكردي، أستاذ مساعد بجامعة طهران، فرديس فارابي
عبير جادري، طالبة الدكتوراه بجامعة طهران، فرديس فارابي

الملخص

يعتبر جبران من رواد المدرسة الرمزية بامتياز وإن أعماله كلها تميزت بطابع الذاتية والتحليق في فضاءات أثرية ومثالية. فكان نتاجه خير ممثل للمدرسة الرومنسية تأسيساً على فلسفته في شمولية الكون وخلود الروح والتناسخ وبعض النزعات الصوفية والتوغل في الذات والكون. من أجمل الرموز التي وظفها جبران في نصوصه بجانب الطبيعة والغاب هو الليل. فجبران انطلقاً من الاعتماد على فلسفته القريبة من الصوفية وتلك المبادئ وظف الأسطورة والماضي في الليل لإعطاء فلسفته قيمة أدبية وقد وفق في ذلك تماماً فالحب اكتسب جمالا وروعة وشعرية وقدسية في توظيف دلالة الليل له وكذلك بالنسبة للتاريخ والأساطير.

أخذ البحث على عاتقه أن يستكشف دلالة الطبيعة والليل ويوظفهما في نصوصه بغية استجلاء ما فيهما من إيجابيات وثرأء إما ممتزجة بأرقى وأسمى العواطف والأحاسيس أي الحب الشامل والكوني وتبيين الإيجابيات الجمالية فيه وإما عن طريق استدعاء الأشباح والأساطير (عشثروت وأبي الهول) وتوصل بأنّ الليل قابل لأكثر من دلالة في قاموس جبران فهو يوحي بامتزاج وانصهار في الماضي واستدعائه واستحضار للأرواح والأشباح والأفانيم الثلاث (الحب والحرية والتمرد) مختزقا الأزمنة والأمكنة كاشفا عن خلود النفس وأبديتها معتمدا على المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات الدلالية : الرومنسية، الليل، الرمزية، جبران، الأدب.

* - تاريخ الوصول: ٩٤/٠٣/١٠ تاريخ القبول: ٩٤/١٠/٢٩

عنوان بريدالكاتب الإلكتروني: s.fathi.d@ut.ac.ir

يعتبر الأدب المهجري خاصة الأدب الجبراني أدبا رومنطيقيا باعتباره متمحورا على الذات مرتقيا ذاته في أحضان الطبيعة مندججا فيها نازعا نزعة تحررية في الحياة متمردا على القيود البالية مندفعًا إلى بناء مجتمع مثالي طالبا الخير والسعادة لكل الإنسانية ولكننا لانراه خاليا من سمات المذهب الرمزي الذي اتخذ الإبهام والضبابية والغموض في الصورة الشعرية والتأكيد على الموسيقى الشعرية والتراسل في الحواس وامتزاجها معا وسيلة لخلق حالة نفسية في جو القصيدة. ففي الحقيقة خرج الأدب الرمزي من صلب المذهب الرومنطقي « وجدت الرمزية العربية بذورها الأولى في الرومنسية المهجرية وزعيم مدرسة المهجر ولا شك جبران. إنّه تأثر في أدبه وفنه التصويري ب«وليم بليك» الشاعر الرسام الإنجليزي الذي كان ينحو منحى صوفيا رمزيا وفي كتاباته ظهرت الرمزية للمرة الأولى في الأدب العربي الحديث مختلطة بنزعة رومنطيقية تخيلية.» (أدهم، ١٩٥٢ م: ٣٠). وهكذا تأثر المهجريون تأثرا بالغا وكبيرا بالمثل الأفلاطونية التي تظهرت في إيمانهم بوحدة الوجود والنظرة الشمولية للحياة والكون فأفرز إحياءات ودلالات غامضة وأثيرية في آثارهم خاصة آثار جبران خليل جبران.

وكادت تطغى على الأدب الجبراني مسحة السمو باللغة والكلام إلى فضاءات حاملة وغلبة النزعة الصوفية عليها فتارة تكون في دلالاته غامضة وتارة أخرى تقترب من الوضوح.» غنيت كتابات جبران بالعطاء الرمزي بتعداد أبعاد رموزه وتنوع إحياءاتها وهي تقترب حينًا في دلالاتها وتذهب حينًا في الإبهام أو تظل في ضبابية وما هو يتعمدها إنما لترد في كتابته كجزء بارز في تعبيره أو أدائه الفني.» (حطيط، ١٩٨٧ م: ٤٧٥).

إن جبران يكثر من استخدام الرموز منها: رمز «الغاب» الذي يوحي بالبساطة والسعادة و«المدينة» التي هي رمز للحياة المادية الغريبة وفسادها و«الليل» الذي يوحي بالسمو والتحليق في فضاءات اللانهائية والأبدية مع الامتزاج بالطبيعة والحب واستدعاء الأساطير والأرواح وأشباح الماضي وكثير من الرموز الأخرى. جاء البحث ملقيا الضوء على رمز الليل ودلالاته الإيحائية عند جبران وتبيين امتزاجه بالحب والطبيعة وتمازجه بالأساطير وأشباح الماضي بغية

الكشف عن دلالاته والوصول إلى عمق الفكر الجبراني ونظريته الشمولية في الكون والحياة وفلسفته وصوفيته. مجيباً على هذا السؤال الذي يضرب في صميم البحث: ما مدى إحصاءات الليل ودلالاته في الأدب الجبراني وكيف استطاع جبران أن يجعل من دلالة واحدة كالليل إحصاءات متعددة ومتشعبة تارة ممتزجة بالحب وتارة بالطبيعة وتارة أخرى بالماضي والأشباح والأساطير؟ عالج المقال الرمزية في أدب جبران رغم الدراسات المستفيضة عن حياته وأدبه فضلاً عن ترجمة آثاره إلى لغات أخرى، لكن قلماً توجد أبحاث تتناول الجانب الرمزي في نتاجه وأصبح هذا الجانب مغفولاً عنه. هناك مقال وحيد عالج هذا الجانب في آثار جبران وهو «الرمز والأسطورة في آثار جبران» لسردار أصلاحي (١٣٩١ هـ ش) في فصلية اللسان المبين، العدد العاشر. والمفارقة بين بحثنا وذلك المقال تكمن في معالجتنا رمزية الليل وتبيين جمالياته وانطوائه على دلالات عدة من ضمنها الأسطورة، بينما جاء ذلك المقال مكرساً بحثه على ذكر الأسطورة ورمزياتها في آثار جبران فحسب ولم يتطرق إلى رمزية الليل ودلالاته خاصة في توظيف جبران الليل للحب والحقائق الخالدة. فبناءً على ذلك جاء البحث متسماً بالجدة، متناولاً رمزية الليل ودلالاته مبسطاً تلك الدلالات مستشهداً بنصوصه.

الطبيعة عند جبران

جبران خليل جبران الكاتب والشاعر الشهير من مواليد عام ١٨٨٣م في قرية بشري بلبنان. كانت أسرته تعاني من الفقر والعوز وأبوه يهيمه مجالس الشرب والقهوة أكثر مما يهيمه أسرته. وكانت أمه - وهي بنت لأحد الكهنة - ذات كمال وتقوى وقفت نفسها على أولادها الأربعة مما دفعها إلى أن تتجه مع الأولاد إلى مدينة بوسطن في حين كان جبران في الثانية عشرة من عمره. فاجأت المصائب جبران في عامين متواليين أي ١٩٠٢م و١٩٠٣م بموت أخته الصغرى وأمه الحنون وأخيه الأكبر مما سبب في أن يتكون في نفسه عمق من الحزن والكآبة ورافقت هذه النفسية سنين طويلة، إلى أن تعرفت ماري هاسكل على عبقريته فأرسلته على نفقتها إلى باريس لمتابعة دروسه الفنية عام ١٩٠٨م وهناك تلمذ للرسام الفرنسي والنحات الشهير «رودان» ثم تعرف على الشاعر والرسام الإنجليزي «وليم بليك» وقد أثر فيه تعلقه الشديد بعالم

الروح وميله الشديد إلى التأمل والتفكير وأعجب جبران شديدا بحياته العائلية الهادئة وكان جبران يتمنى لو كانت له مثل هذه الحياة المثالية.

وبعد رجوعه إلى بوسطن سافر إلى نيويورك عام ١٩١٢ وسكن في بيت متواضع في حي قلم يقطنه أصحاب الفن وقد أطلق أصدقاؤه اسم «الصومعة» على هذا البيت. عندئذ بدأ جبران مرحلة جديدة من حياته حيث كانت مرحلة التأمل والتفكير والفلسفة ولاسيما بعد ما تعرف على «نيتشه» وكتابه «هكذا تكلم زرادشت» حيث أثر عميقا في رؤيته تجاه الحياة (الفاخوري، ١٩٨٦م، ٢٢٠) وفي عام ١٩٢٠م تأسست «الرابطة القلمية» في المهجر الشمالي وعيّن جبران زعيمها الذي انتخبه الأعضاء بالإجماع وبدأ جبران يشعر بالجد والعظمة اللذين كان يحلم بهما منذ طفولته. كان لجبران عدد من المؤلفات أهمها هو الذي شهّره ورفعته إلى أسمى درجات الكتاب والمؤلفين ألا وهو كتاب «النبى» الذي أصدره بالإنجليزية عام ١٩٢٣م.

إن للطبيعة مكانة سامية في قلوب الشعراء فهي الأم الرؤوم والحنون التي تفتح نوافذ الذوق والفن في قرائحهم وتجود بمواهب الإلهام والوحي على مداركهم تارة يصفونها كما هي في الواقع وبجاذبتها وتارة يجسدونها تجسيدا ممزوجا بذواتهم ووجدانهم ملقين أحاسيسهم ومشاعرهم عليها «فعلى هذا النحو من التشخيص الحي للطبيعة، المتّجه إلى ما وراء المشاهد المنظورة من الوجود المعنوي والمعتمد على يقظة الروح والتجاوب الوجداني والمشاركة الشعورية كان أدب الطبيعة في المهجر.» (حسن، ١٩٨٥م: ٢٤٢)

إنّ هذا التوغل العميق والتأمل في الكون خاصة في الطبيعة ونشدهم العالم المثالي حدا بهم إلى التمرد والثورة على الحياة المادية المتمثلة في المدينة والدعوة إلى الحياة الطبيعية التي رمزوا إليها ب(الغاب) إنّه هو العالم المنشود المثالي والجنة التي تحقق الوحدة والسعادة، حياة الحرية والبساطة حيث لا يكون فيه حزن ولا همّ ولا عدل ولا رقيب ولا قبور أي تنعدم فيه الشائيات ويمّحي الشر والظلم وتسود العدالة الأبدية.

وقد أفاض جبران في وصف الغاب في «مواكبه» حينما أنشد:

ليس في الغابات حزن لا ولا فيها الهموم

(جبران، دت : ٣٥٤)

ليس في الغابات عدل لا ولا فيها الرقيب

(المصدر نفسه : ٣٥٥)

ليس في الغابات موت لا ولا فيها القبور

(المصدر نفسه : ٣٦٢)

تمكنت الطبيعة بالتوغل وطول التأمل عند الشعراء الرومنطيين خاصة جبران، تمكنت أن تصبح رمزا لآمالهم وأفكارهم وعالمهم المنشود ويوطبوا أحلامهم التي طالما ينشدونها في أشعارهم إثمًا» أصبحت عنوان الحياة المثلى ... وعنوان الحياة الشاملة التي تطعم ذاتها من ذاتها فلا موت الحمل عندها مأم ولا غذاء الذئب وليمة.» (الناعوري، دت : ٩٥)

إن جبران مغرم بالطبيعة شأنه شأن الرومنسيين ومنصهر في بوتقتها. يذوب ويحلّ فيها فهو يصبح جزءا منها ييثر شعوره فيها ويتحد معها.» «لأنّ الرومنسيين تنهمر التجارب والمشاعر من ذواتهم وتحلّ في مظاهر الطبيعة.» (الحاوي، ١٩٨٠ م : ٣٢). لذلك نلاحظ أن الطبيعة والغاب تمتزج بأفكار جبران الفلسفية والتأملية فحينئذ تصبح رمزا للخلود ووحدة الوجود. وأعلى جبران من شأن الطبيعة ووظفها لتلك الأفكار وقد أحلّها في مظاهر الوجود منشدا في ذلك يخاطب الطبيعة:

منزلا دون القصور؟

هل اتخذت الغاب مثلي

وتسلقت الصخور؟

فتتبعت السواقي

وتنشقت بنور؟

هل تحمّمت بعطر

في كؤوس من أثير؟

وشربت الفجر خمراً

(جبران، دت : ٣٦٣)

وفي خضم هذه الأحاسيس الوجدانية والنزعات الصوفية تمتزج الطبيعة بالإنسان كالخمر والنور وما هذا الإنسان إلا ذات جبران الذي شرب من خمرة الفجر فسكر واستنشق النور واستحمّ بالعطور، أي بلغ إلى درجة الفناء والذروة القصوى في الاتحاد مع الكون. اتخذ جبران الغاب منزلا له دون المدينة

وقد عاش فيه حياة طبيعية يتابع في تلك الحياة السواقي ويتسلق الجبال والصخور. أنه منصهر في الطبيعة يريد إحلالها في نفسه بشرها كالحمرة لكي تسري في ذاته وتصبح جزءا من الأثير ومن الكون. فهي روحه وذاته كما قال عباس نجم: « الغاب رمزاً أدق وأصدق في التعبير عن روح جبران. » (نجم، ١٩٨٢م: ٧٥). لمسنا هذا الحب العارم للطبيعة. فتذوب ذات الشاعر في الكون فهي تارة نغمة وتارة موجة في نهر وأخرى أريجاً أو نسمة أو مخلقاً في النجوم البعيدة وما هذه الأناشيد إلا صدى لتلك الانصهارات في بوتقة الطبيعة وبما أن الليل هو جزء من الطبيعة ومن أجمل الرموز وأكثرها كثافة ودلالة حيث الانعتاق والتحرر من سجن المادة والانطلاق نحو الفضاءات الأثيرية يتطرق البحث إلى هذا الرمز وتبيين دلالاته عند جبران.

رمزية الليل في الأدب الجبراني

إن المراد بالرمزية في الأدب هو التعبير الغير مباشر عن الخلجانات النفسية الكامنة التي لا يستطيع المنشئ أن يعبر عنها تعبيراً مباشراً فالرمز هو الرابطة التي تصل بين النفس الانسانية وبين الأشياء الخارجة وفيه تنضج المشاعر التي تحيى في النفس ويعسر التصريح بها. (هدارة، ١٩٩٠م: ٢٦٤) أو «الميل الواضح على استخدام لغة ذات مضامين تحوي في الغالب نبرة تكريس روحي وتوهج صوتي.» (الجيوسي، ٢٠٠٧م: ٧٣٠) وهذا أنسب تعريف لما نحن بصدد تناوله في النص الجبراني للكثافة الدلالية والإيحاءات الموجودة في رمز الليل. يحتلّ الليل في الأدب مكانة مهمة لما ينطوي على دلالات وإيحاءات متعددة فهو تارة باعث على الشقاء والألم والأرق والفراق وتارة ملهم وموح وملقّن بائح بأسرار الحياة والكون ومستحضر الأحداث الماضية نافخ فيها الروح والحياة ممتزج بالحب والطبيعة والأساطير والأرواح والأشباح. فالليل في قاموس جبران احتوى على تلك الدلالات إنه رمز غني قابل لأكثر من قراءة يعكس ثراءه الدلالي والفني طبقاً لمواقفه وانفعالاته وأحاسيسه لأنّ الليل بسكينته وهدوءه يسمح للذات الداخلية بأن تستيقظ ولكوامن الشاعر أن تبرز وتطفو على السطح مهما كانت خافية. فلذلك نرى ثمة علاقة وطيدة بين الليل والحقائق المستوحاة منه فهي جبران مازجا الليل بالحب والطبيعة مستدعياً الماضي من أرواح وأشباح هامسة بحقائق وأسرار. فيما أنه كان ينحى منحى صوفياً مسيحياً في الأدب وكان متبنياً لفكرة وحدة الوجود والتقمص والحب الإلهي والشمولي والاتحاد والفناء في الله حسب ما قال عنه الدكتور صابر عبدالدايم: «إن أدب جبران أدب تأملي فهو كسائر الشعراء

الصوفيين وقفوا حياتهم على التأمل وجعلوا من حب الإله فلسفة خاصة ووضعوا لها رموزا تربطها بحياة العاشقين وفي أشعارهم عبروا عن فلسفتهم في وحدة الوجود ونظرية التناسخ وفلسفة الحب الإلهي والاتحاد بالله والفناء فيه.» (عبدالدائم، ١٩٩٣ م: ٥٢). نلاحظ أنّ تلك الأفكار شكلت الركيزة الأولى لكل كتاباته.

أ. الأبدية والخلود

إنّ جبران يغرق ذاته في الوجود ويندمج فيه وما الليل عنده إلاّ تجل ومظهر من مظاهر الوجود والكون فالليل بوابة إلى الأبدية واللافتائية وبالتالي امتزاج بالخلود ومعانقته.

إن الأدباء والشعراء خاصة الرومنطقيين وعلى رأسهم جبران خليل جبران الذي ينزع نزعة صوفية نحو الأدب لا يرون في الليل وفي هدأته إلاّ «رحابا من الأجواء الخرساء المünسنة التي تساعدهم على التفكير ولأنّته مليء بالأسرار ويمحو الحدود به فيرتفع ستار الأسرار عن النفس بالإشراق الروحي والأحلام. إنّ الليل معبر إلى اللانهاية وإنّ الحقائق الكبرى تتجلى في ظلمات الأحلام وفيه تطوف الأرواح وفيه تتحرك أشباح الخيال ... إذ تشور حواطيرهم في هدأة الكون حين تبدو الظلمات مشوبة بأضواء شاحبة في طريقها إلى الفناء الذي يذكي الشعور بالموت ويفتح أمام الرومنطقيين باب الأبدية لأنهم يعتقدون أنّ الحقائق الكبرى تتجلى في ظلمات الأحلام وما ظلمات الموت إلا فجر الخلود.» (هلال، دت : ٣٩) فها هنا يصدق جبران بالليل مناجيا أرواحه وأشباحه معانقا سحره وأحلامه وآماله ومن ثم لا نهائيته وأبديته قائلاً:

«أيها الليل! يا ليل الأشباح الأرواح والأخيلة! فكنت بمولك لي أبأ وكنت بأحلامي لك ابنأ فأبحت لي أسرارك ونياتك وأبنت لك أمانيّ وآمالي. لقد صحبتك أيها الليل حتى صرت شبيها بك وألفتك حتى تمازجت ميولي. وأحببتك حتى تحول وحداني إلى صورة مصغرة لوجودك. أنا مثلك أيها الليل! ليس لظلمتي بدء وليس لأعمافي نهاية. أنا مثلك أيها الليل! ولن يأتي صباحي حتى ينتهي أجلي.» (جبران، دت م:ص ٣٨٤)

إنّ الليل عند جبران حقل تمجّع فيه الأشباح والأحلام وإنه ذلك الشبح الهائل الذي يبادل الأسرار. والعلاقة بين ذات الشاعر والليل في البداية علاقة أبدية خالدة كعلاقة الأب بابنه فالإنسان هو ابن الليل ومن جنسه ثم تتدرج العلاقة وتنمو حتى يصبح الليل الملهم والمعلم ثم بعد ذلك يتحدّ ويذوب فيه فيصبح ماثلاً له فيعانقه معانقة

الأبدية فبالتالي يصبح كالليل سرمديا وأبديا. «الليل يحمو الحدود فيرفع ستار الأسرار عن النفس بالإشراق الروحي والأحلام فالليل معبر إلى اللانهاية وهذه ناحية صوفية في أدب الرومنتيكيين.» (هلال، د ت: ١٥٨). نستشف عبق تلك الصوفية لتلك الأرواح السابحة في أثر الليل بخطابه: «أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي الأبدى.» (جبران، دت: ٣٨٤). فبالتالي تنجلي الحقائق والأسرار لتلك الأرواح المخلقة. إن فكرة الحلولية والاندماج في غماية المطاف تقوده إلى فكرة وحدة الوجود وخلود النفس: «يا نفس إن قال الجهول: الروح كالجسم تزول وما يزول لا يعود. قولي له إن الزهور تمضي ولكن البذور تبقى وذا كنه الخلود.» (المصدر نفسه: ٥٩٨). ظهرت حقيقة الوجود وتجلت عنده في سكينه الليل إذ نراه يتحدث عن لسان وردة حول حقيقة الوجود: «إنني أصغيت في سكينه الليل فسمعت العالم الأعلى يقول إنما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود. لقد عشت ساعة كملكة لقد نظرت إلى الكون من وراء عيون الورود وسمعت همس الأثير بأذان الورود ولمست ثنايا النور بأوراق الورود. أنا أموت الآن وأنا عاملة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه وهذا هو القصد من الحياة هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الأيام والليالي.» (المصدر نفسه: ٤٨٦).

ب . الكشف عن أسرار الحياة وحقائقها

إن الليل عند جبران يأخذ طابعا ومنحى صوفيا إنه تجل للحقائق وانكشاف للذات وحلول وامتزاج. «فهناك عالم هو عالم الأرواح عالم الروح الأكبر. إن أصحاب هذا المعتقد لا بد لهم من الحنين إلى هذا العالم المجهول وهذا الحنين إلى عالم الروح هو منحى من مناحي الصوفية ورغبة من رغباتهم.» (ديب، ١٩٩٣م: ١١٨). جبران يجسد تلك الرغبات والميول الصوفية المثالية فنراه يخاطب الليل قائلا: «أنت تفتح بصائرنا أمام هيبة اللانهاية. أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي. أنت ظلام يرينا أنوار السماء. فأنت ملقن الشعراء والموحي إلى الأنبياء.» (جبران، دت: ٣٨٤). فانطواء الليل على إحياءات متعددة خاصة الأسرار وما تتمثل تلك الإحياءات باستحضار الأشباح والأرواح - كما أشير سلفا - هي السمة الأخرى لطبيعة الليل عند جبران. فالليل الجبراني مثير لكوامن الحياة وباعث على التفكير خاصة حينما يمتزج بعنصر آخر من الطبيعة وهو (البحر) الذي يرمز عند جبران إلى الخلود واللانهاية فهو كالليل مثير للغموض والإبهام وينتزع جبران من الليل الأشباح والأرواح ويستحضر منه الأقانيم الثلاث: الحب والحرية والتمرد حيث اعتبرها قوى سرمديّة أبدية خالدة.

يربط جبران بين تلك الأقانيم وبين الليل الذي يعتقد أنه معبر إلى اللانهاية والخلود. إنَّ انفتاح الليل على اللانهاية بمعنى أنَّ الليل هو جنس من الأبدية ومنتم إلى الحقائق والمثل العليا. فالأشباح الثلاثة المستوحاة من صميم الليل المتغشية بالضباب تأتيه متحدثة عن حقائق الحياة مستحلية أسرارها. فالأولى تبوح بحقيقة الحب وتقرنه بحقيقة الحياة والجمال فالثانية تتحدث عن التمرد وتقرنه بالحياة والحق والثالث هي الحرية المقترنة بالفكر: «عند ما جنَّ الليل وألقى الكرى رداءه على وجه الأرض تركت مضجعي وسرت نحو البحر بلغت الشاطئ وكان الضباب غمر تلك النواحي.. التفت فإذا بثلاثة أشباح جالسين على صخر قريب وأغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم... في تلك الدقيقة وقف أحد الأشباح الثلاثة وقال: الحياة بغير الحب كشجرة بغير أزهار والحب بدون جمال كأزهار بغير عطر الحياة والحب والجمال ثلاثة أقانيم في ذات واحدة مستقلة مطلقة لاتقبل التغيير ولا الانفصال. ثم انتصب الثاني: الحياة بغير التمرد كالفصول بغير ربيع والتمرد بغير حق كالربيع في الصحراء، والحياة والتمرد والحق ثلاثة أقانيم في ذات واحدة... ثم انتصب الشبح الثالث وقال: الحياة بغير الحرية كجسم بغير روح والحرية بغير الفكر كالروح المشوشة الحياة والحرية والفكر ثلاثة أقانيم في ذات واحدة أزيلية لا تزول ولا تضمحل.» (المصدر نفسه : ٤١٦) تمخض عن حقيقة الحياة الحب والتمرد والحرية فوظفت الأشباح المتسترة بظلام الليل والضباب للبوح بتلك الأسرار فالليل البهيم والمظلم أصبح في قاموس جبران دلالة كاشفة عن أسمى وأرقى الحقائق والمثل. فالليل هو الطريق إلى الخلود والاتحاد بالأبدية واللانهاية فيه تبوح القلوب بأسرارها وتسبح الأرواح في فضاء أثري فهو الملهم والملقن والموحي إنه بوابة الخلود. إنَّ في ظلامه نور وما هذا النور إلا نور الحقيقة وانكشاف الذات والبصائر على سر الحياة. إنه آت من الأبدية بائحا بأسرار الكون والحياة.

نستخلص من قصة "حفر القبور" لجبران امتزاجا آخر ليليل بالحقيقة وانكشافها. فمنتصف الليل هو الوقت الذي طالما انتقاه جبران للبوح بالأسرار والحقائق. تلهمه الأرواح والأشباح بحقيقة الحياة والموت وأسرار الوجود والعدم وما هذا الإلهام إلا من وحي الليل وجبارته فجاء على لسان الشبح الإقرار بتلك الحقائق: « أنا مجنون قوي أسير فتميد الأرض تحت قدمي وأقف فتقف معي مواكب النجوم... وفهمت أسرار الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة الليل.» (المصدر نفسه: ٣٧١). ثم تلهمه بعد بامتهان حفر القبور فتصف الأحياء الذين يرتعشون أمام عاصفة الحياة بالأموات: « اتخذ حفر القبور صناعة تريح الأحياء من جثث الأموات... فترى الناس يرتعشون أمام

عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منظرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم.» (المصدر نفسه : ٣٦٨). فالحي الحقيقي هو الذي يسير مع العاصفة راكضا ولا يقف إلا بوقوفها : « إن الميت يرتعش أمام العاصفة وأما الحي فيسير معها راكضا ولا يقف إلا بوقوفها.» (المصدر نفسه : ٣٦٩). فهذا الشبح المحتجب بضباب الليل يتسم بالخلود والأزلية هو إله وكالليل أبدي وخالد: « ما اسمك ؟ أنا الإله المجنون وأين ولدت؟ في كل مكان ومتى ولدت ؟ في كل زمان.» (المصدر نفسه : ٣٧٠). فنلمس أن هذه الحقائق الخالدة جاءت على لسان الأشباح السرمدية المنبثقة من حقيقة الليل. فالليل موح بالأشباح والأشباح موحية بالحقيقة وكلاهما خالدان.

ج . امتزاج الليل بالحب

١. الحب الصوفي

كانت جبران منطلقات خاصة في مجالات مختلفة بما فيها الدين والشرائع السماوية، الإنسان والإنسانية، الحياة المثالية والموت، الأبدية والخلود، الحب والمحبة إلى غير ذلك من المواضيع والمفاهيم المتعلقة بالإنسان. وكانت الجمعية التيوصوفية قد تشكلت في أميركا منذ سنوات عندما عاد جبران إليها، وبميل المناخ الروحي هناك إلى التنوع والتعقيد والخروج على التقاليد المسيحية، وبما أن جبران لم يكن يطبق هذه التقاليد والطقوس فلذا نزع إلى التيوصوفية (أي فاضل : ٥٣٩) لأنه وجد فيها غذاء لنزعه الصوفية ودعم لرسالته الإصلاحية ومنطلقا لعمله الاجتماعي. وتدعى التيوصوفية أن معرفة الله تتحقق عن طريق معرفة الذات وبواسطة الوحي الذاتي، فتسمو بذلك الروح الإنسانية سموا تتحد في نهايته بالله فترفض التقاليد والأنظمة التي توارثتها الأجيال ولا فرق عندها بين الأديان فالتيوصوفية تلتفت إلى قلب الإنسان تُخلّيه بالحب من كل ما يحول دون نمو التعاليم الإلهية وتجعله بصفاء المحبة مصدرا للإلهام والإشعاع الإشرافي (الفاخوري، ١٩٨٦م : ٢٣٨).

يشبه هذا الإشراف والإلهام ما نجد في العرفان الإسلامي بينما لاندعى أن جبران أو التيوصوفيين كانوا عرفاء بالمعنى الإسلامي إذ إن العارف المسلم يزكي نفسه ويظهر باطنه ويواظب على الأحكام والشرائع الدينية ويتأمل ويفكر في حقائق الكون والوجود ويستعين بالله في كل هذا كما أن فكرة التناسخ والتقمص والحلولية التي يعتقدها جبران هي فكرة تتناقض تماما مع الصوفية الإسلامية.

إن الحب والليل في الأدب الجبراني مقرونان لايفترقان أبدا إذ نراه ينصهر في الحب ويذوب فيه إيماناً منه بفكرة وحدة الوجود وشمولية الكون ومن ثمّ الانصهار والذوبان في ذات الله إته متأثر بالفكر الصوفي المسيحي لذلك كثيرا ما يستخدم في آثاره الرموز الصوفية (الشمس، الناي، الحجاب) وأيضا عبارات العطش الروحي والسكر الروحي والحنين. إن هذه النزعة تكاد تغطي على كل أدبه وآثاره. يؤكد هذا الاستنتاج ما قاله أنطون كرم عن أدب جبران: «إذا كانت أعماله متونا لتصور أمين للمذهب الصوفي فهي على الأقل تأويل لمفاهيم الصوفية كما رآها بمنظور حساسيته الشعرية الخاصة.» (نجار، ٢٠٠٨م: ١٣٨). إنّ جبران يشاطر المتصوفة مفاهيم أحادية الوجود والاتحاد بالله إذ يغدو الله هو المحبوب والمعشوق الأبدي والسرمدى. «إنه يسمي الله الذات الخفية أو الذات الكبرى أو غير المحدود... إنّها صوفية تحلم بالاتصال بالله والاتحاد به وأشواق روحية إلى الملاء الأعلى والانفلات من عالم الحدود إلى عالم الكمال المطلق وشعور عميق بأنّ الله ملء نفوسهم وعقولهم وإحساس بغربة الروح.» (حسن، ١٩٨٥م: ٣٩٥).

إن جبران رغم نزعتيه الصوفية في الأدب يعتبر الحب الدنيوي وسيلة لبلوغ الحب الإلهي والارتقاء والفناء في ذات الله فيقرن صورة الحب الدنيوي بصورة الحب الإلهي. فحينما يتكلم جبران عن الحب ويريد الإفصاح عنه لا يقع هذا الإفصاح إلا في الليل وظلماته. فالحب يرفرف كطائر بجناحيه عليه في سكينة الليل فيسهر مترقبا ما لا يعرفه مصغيا إلى ما لا يسمعه محذقا إلى ما لا يراه. يبدي استغرابه عن تلك الأحاسيس التي تتابه ليلا طالبا كشف السر الخفي الكامن خلف الدهور: «ما هذه الأجنحة التي ترفرف حول مضجعي في سكينة الليل فأسهر مترقبا ما لا أعرفه مصغيا إلى ما لا أسمعه محذقا إلى ما لأراه مفكرا بما لأفهمه شاعرا بما لأدركه.» (جبران، دت: ٣٨٠).

إنّ سكون الليل يزفّ إليه هذه المعرفة العلوية ويكشف له الحجب والأسرار: «الحب معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الأشياء كما يراها الإله.» (المصدر نفسه: ٣٨٢). وفي مكان آخر نرى تماهي الحب في الليل وانصهار روح جبران فيه: «سأخذ الحب سميرا وأسمعه منشدا وأشربه خمرا وألبسه ثوبا... وفي الليل سبعانقني فأنام حالما بالعوالم العلوية حيث تقطن أرواح العشاق والشعراء» (المصدر نفسه: ٢٠٤). نستشف أنّ جبران اتخذ من الحب مركبا لبلوغ العوالم العلوية وحلّ فيه إلى أقصى حد حيث أصبح الحب سميرا ومنشدا وخمرا وثوبا أي التصق بذاته التصاقا حميما وهو الذي يبلغه إلى العوالم العلوية حيث تقطن أرواح الشعراء والعشاق.

٢. الليل ولوعات الحب

كان حب جبران مشبوباً بنظرة إجلال وتهيب فللحب مكانة تضاهي القدسية لأنه بنى للحب هيكلاً يستوقف كل ناظر له متهيباً خاشعاً فلا تستطيع النفس أن لا تخضع ولا تتخضع: «أية نفس لم تقف متهيبة في ذلك الهيكل المنير المرصوف بجبات القلوب المسقوف بالأسرار والأحلام والعواطف؟» (المصدر نفسه : ٢٠٥). وبعد أن يجمع الليل المتحابين لا يكون هذا اللقاء إلا لقاء روحياً يسمو بسمو الحب ولا يتم إلا في معبد أو هيكل أو في أحضان الطبيعة التي يقدسها الروح الرومنسية. حينما كان يلتقي جبران بحبه الأول ما كان ذلك إلا في معبد أو هيكل ونرى جبران يعاتب سلمى (حبه الأول) على مفارقتها له وعدم مجيئها إلى المعبد: «فقلت ما ذا يصدك عن المجيء إلى هذا المعبد والجلوس بجاني أمام هيئة الله والأشباح؟» (المصدر نفسه : ٢٢٧). فالحب عنده يتميز بنكهة خاصة يتطبع بطابع الابتهاال والنحوى والشكوى إلى الرب والمتحابان يكونان تحت رعاية الله وإشرافه ولا يلتقيان إلا وعلى شفقتيهما ترنيمه أو نحوه أو شكوى للرب يشكيان له الحب ولوعاته. يلتقي جبران بحبه الأول ويكون ذلك اللقاء ليلاً تحت السماء: «ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب ومدت يديها إلى الأمام وارتحفت شفتاها ثم صرخت قائلة: ما ذا فعلت المرأة يا رب... أنت أو ثقنت حاضري بروح فتى أحبه وبجسد رجل لا أعرفه. أسعفني... لتكن مشيئتك يا رب وليكن اسمك مباركاً إلى النهاية.» (المصدر نفسه : ٢٠٦) إنها تشكو لوعة الحب والفراق إلى الله تستنجد بالقوى العلوية على احتمال لوعاته. الحب هو العالم الروحي الذي يطوف فيه روح جبران وروح سلمى فهو اجتماع أرواح لا التقاء أجساد. في أغنية الليل نرى التماهي في أحضان الحب قد بلغ أقصاه فالليل وكل شي في الطبيعة حتى الأحلام تختبئ في سكون الليل ويكون الليل حينئذ مسرحاً للمتحابين: «سكن الليل وفي ثوب السكون تختبئ الأحلام وسعى البدر وللبدر عيون ترصد الأيام فتعالى! يا ابنة الحقل نزر كرمه العشاق علناً نظفي بذياك العصير حرقه الأشواق. اسمعي البلبل ما بين الحقول يسكب الألحان. في فضاء نفخت فيه التلؤلؤ نسمة الريحان. لا تخافي! يا فتاتي! فالنجوم تكتم الأخبار وضباب الليل في تلك الكروم يحجب الأسرار. لا تخافي! فعروس الجن في كهفها المسحور هجعت سكرى وكادت تختفي عن عيون الحور ومليك الجن إن مرّ يروح والهوى يثنيه فهو مثلي عاشق كيف ييوح بالذي يرضنيه.» (المصدر نفسه : ٦٠٧).

٣ . الليل حافظ لأسرار الحب

وفى هذه الأغنية يتوشح الليل بالسكون والهدأة فكل شيء يلقه الغموض والصمت وي كتنفه السر حتى النجوم لا تبوح بأسرار الليل الذي غمره الحب. فالحب سر من الأسرار فكل عناصر الليل تحفظ لليل سره وتكتم أخباره فلايستطيع أحد أن يطلع على الأسرار إلا إذا كان عاشقا. فعروس الجن ومليك الجن كلاهما قد خامرهما سكر الحب وهما يحفظان للحب أسرارهم والبلبل يغرد أناشيد الحب فى فضاء مملوء بنسائم الريحان فى حرية وكذلك الضباب يعين على حفظ الأسرار وحجبها. فالليل كما رأينا فى هذه الأغنية يمتزج بعاطفة الحب التى تسري فى النفس سريان السكر والخمور. فهو باعث على الطمأنينة والهدوء وسائر المتحابين وإن رصدتهم عيون البدر لا ضير فى ذلك. وهكذا يخاطب جبران الليل ويتجاوب معه ويستشف أسرار شاعرا نحوه بالألفة والأنس. « فالليل وما فى ظلامه من الوحشة وما فى أشباحه من الرهبة وما فى سكينته من الأسرار هو أحب الرموز إلى جبران.» (سراج، ١٩٦٤م: ١٦٧).

٤ - شد الحب إلى الخلود

«إنّ المحبة التى تولد فى أحضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفى بغير الخلود ولا تقف متهيبه أمام شيء سوى الألوهية.» (المصدر نفسه: ٢٣٠). هكذا عرف جبران الحب الحقيقى فإنّه سر من الأسرار التى هبط مع الليل، فالليل يشد الحب إلى اللانهاية إلى الخلود والأبدية وما الحب عند جبران إلا كالأحلام والعواطف خالدا. « فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلى الخالد وقد تتوارى حيننا وتجمع آونة متشبهة بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح.» (المصدر نفسه : ٥٠) وكثيرا ما يناجى المحب فى معبد أو هيكل صادحا بنغمات الحب خاشعا متذلا:

«فى تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء الموحدة بين أرواح النيام وأحلام اللانهاية جاء ناتان ودخل هيكل عشتروت، رهماك يا ربة الحب والجمال ! من وراء ظلمة هذا الليل أستجير بحنانك. من هذه الأعماق أصرخ إليك يا عشتروت المقدسة ! قد أحببت صبية من بين الصبايا من أجل ذلك جئت إليك متذلا فارحميني» (جبران، دت : ٤٨). يتهلل المحب، ابتهالات الحب أمام مذابح

الآلهة ممزجا لوعاته بالليل مستنجداً بألهة الحب والموت (عشتروت). فالحب والآلهة والهيكول والليل يشكل أهم عناصر النص عند جبران و في قاموسه.

«تصل علاقات الحب إلى ذروة المستويات الوجودية لتدخل في مناخ ما بعد وجودي يتجاوز الحب الحدود الإنسانية والطبيعية ليرتبط بقوة علوية. ينتمي الحب إلى وجود عيني متغير (الإنساني والطبيعي) ثم يفترّ باستمرار من قيود هذا الوجود بغية معانقته الأزلية وبقدسيته يسليخ الحب المحب عن عالمه المتغير الفاني ليلحقه بعالم سرمدى أزلي إنّه يخرج عن كونه عاطفة إنسانية زائلة ليغدو إلهيا مشاركا في صفات الله، إن الحب صدى لنفس وذات جبران الذي توصل بالفرار من محدودية الحياة معانقة الأزل والخلود بالحب.» (حبيب، ١٩٩٥م: ٩٠).

د. الليل والأساطير

«للأساطير في الشعر المعاصر دور في إبراز جمال التحرية الشعرية حيث تكسيها عمقا ورحابة وتضفي عليها سمة من الغموض المحب الذي يعطي للمتلقى فرصة لتشغيل ذهنه ويفتح أمامه باب التخيل فيرى في التجربة ألوانا متعددة من الصور والمضامين... استوحى المهجريون من الأساطير بعض تجاربهم حيث يمتزج فيها الخيال المخلق بالواقع وتلتقي فيها الحقائق بالأساطير.» (عبدالدايم، ١٩٩٣م: ١٤٣).

انطلاقا من الإيمان بوحدة الوجود والحب الكوني الشامل عند جبران الذي يربط في أبعديه حاضر الإنسان بماضيه نرى انخيار وتلاشي الفوارق والحواجر بين الأزمنة فحينئذ يتصل الماضي بالحاضر والمستقبل بالماضي على أساس أنها تعود إلى حقيقة واحدة وهي حقيقة وحدة الوجود. كثيرا ما تتداخل الأزمنة وتبعث الأرواح والأساطير من مضجعتها ومرقدها في صمت الليل ورهبتة. إنّ الليل ينفث في الماضي الروح والحياة فيحيا ويتنصب الماضي مخترقا الحاضر فلا يكون هذا الانبعاث إلا في صورة استدعاء للأساطير ولا يكون هذا الاستحضار إلا ممزوجا بالحب وقد آثر جبران أن يكون الليل هو الحاضن والمستوعب لتلك الأحداث ليكون بالغ التأثير والوقع في النفوس. إنّ الليل عند جبران موج وكاشف للأسرار مستدع الماضي بأسطورة الحب عند البابليين (عشتروت). فلا يكون هذا الاستدعاء إلا في الظلمات التي تبلغ أقصى كثافتها في منتصف الليل. «فمنتصف الليل قمة الهدوء الذي يشبه العدم حتى ليبدو العالم وكأنه صورة لما كان ولكّنه في الحقيقة ينبض بحياة مستسرة تزيد روعة... إنهم يرحبون

بالظلمات وكما قال يانج عن الليل: مرحبا أيتها الظلمات! مرحبا أيتها الغابات العذراء حيث الدجنة الظلماء.» (هلال، دت :١٥٩).

هذه الكثافة الموحية تستدعي عند جبران رموزا أساطيريا تدور حول فكرة الموت والخلود ورغبة في الهرب لا من قيود المجتمع فحسب بل من العالم المحدود وتطلع إلى العالم الآخر إلى ما لا يفتنى. إن جبران اعتنق «فكرة التناسخ القائلة بأن الأرواح حين تفتنى الأجساد تنتقل عبر الأجيال إلى أجساد أخرى وتدخل فيها ولهذا فإن الحوادث تتكرر عند أشخاص مختلفين وقد يتم الإنسان ما بدأه غيره منذ ألف عام. وهذه الفكرة هي التي دعت جبران خليل جبران إلى كتابة قصته «رماد الأجيال والنار الخالدة» فإنّ روحي «ناتان» وحببته التي ماتت وهام هو بعدها في البراري، قد تجسدتا في جسدي» علي الحسيني» وصاحبته التي عادت اليه بالرغم من وجود تسعة عشر قرنا من الزمان بين الحادثين وبالطبع حصلتا في نفس المكان من مدينة بعل (إله الشمس) وفي هذه القصة يقول جبران موضحا فكرته:» فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلبي الخالد وقد تتوارى حيناً وتجمع أونة متشبهة بالشمس عند مجيء الصباح.» (سراج، ١٩٦٤م: ١٣٠).

وظف جبران أسطورة عشتروت (ألهة الحب) خير توظيف لفكرته في تناسخ الأرواح وذلك عبر حلول أرواح المتحابين قبل تسعة قرون في جسدي علي الحسيني وصاحبته:» انتصف الليل وألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته فتعبت أحفان علي من أشباح اليقظة وكّلت عاقلته من مرور الأخيلة السائرة بسكينة مخيفة بين الجدران المهدومة...فنسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنوية المفعمة بالأحلام المترفعة عن شرائع الإنسان واتسعت دوائر الرؤيا أمام عينيه وانبسطت له خفايا الأسرار. لأول مرة في حياته شعر علي الحسيني بعاطفة غريبة أيقظتها خرائب الهيكل عاطفة غريبة تولدت من خلايا حقيقة واحدة ومن دقيقة واحدة تتولد رسوم الأجيال. نظر"علي" نحو الهيكل المهديم فظهرت بقايا المذبح واتضحت أماكن الأعمدة المرتمية وأسس الجدران المتداعية...» (جبران، دت : ٥٢).

إنّ الماضي ليخترق الحاضر فالليل يبوح بأسرار الماضي لعلي الحسيني مزيلا الحواجز الزمنية جامعا بينه وبين أرواح الماضي سارحا به إلى الأزمنة الغابرة بلمحة واحدة. إن عاطفة الحب في النص تداخلت بالماضي والعصور في إطار زمني ومكاني متداخل وتمتازج. إنّ الفضاء والأمكنة عبر اندماجها بالليل الذي رمز اليه جبران بالتححر والانطلاق من القيود والغور في عالم اللا محدود والأبدية أضفت ظللا سحريا على الصورة الشعرية خاصة في ترداد الأفعال (ظهرت، اتضح) إذ تلك الأفعال توحى

بانبعث الأمكنة وتلك الأفضية مرة أخرى وكأننا أمام مشهد رسمه بريشته السحرية فبتأثير من فلسفة التقمص « تتلاشى عنده حدود الزمان والمكان والمسافات الفاصلة بين جزئيات الوجود فكل شيء ابن اللحظة. فليست هناك توقيتات معينة وإنما في كل لحظة تتجمع الآزال والآباد.» (عبدالدام، ١٩٩٣م: ٢٩١). فبعد أن حلت الأرواح الماضية في الأجساد الحاضرة نلاحظ أول ما نطق به هو الحديث عن الحب والتصريح بتلك الحقيقة أي خلود الروح وخلود الحب عبر الزمان والمكان وشموليته: « نظرت الصبية في سواد عيني علي وقد تلاعب النسيم بشعرها ... وشعرت بأنامل سحرية تداعب لسانها وشفتيها رغم إرادتها فقالت وفي صوتها حلاوة جارحة: قد أعادت عشرتون روحينا إلى هذه الدنيا كيلا نخرم ملذات الحب.» (جبران، دت: ٥٧) كل هذا قد حصل في الليل «أحيانا يهرب جبران من نفسه إلى عالمه المنشود الذي يرمز له بالليل ويقول: عند ما ملت نفسي البشر وتعبت أجفاني من النظر إلى وجه النهار سرت إلى تلك الحقول حيث تهجع أشباح الأزمنة الغابرة. هنالك وقفت أمام كائن أقتم مرتعش سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والأودية.» (عبدالدام، ١٩٩٣م: ٣٤٠).

ونلاحظ أيضا امتزاج الليل الذي يحوي خفايا الحياة وأسرارها مرة أخرى بفلسفة التقمص عند هيكل الإلهة عشرتون ولكن في هذه المرة انتقلت روح الحكيم والشاعر البعلبكي في جسد شاعر آخر يحمل نفس الاسم ويكون شاعرا مثله لكن مصريا بعد مرور عشرة قرون وقد حصل التقمص في قصة «الشاعر البعلبكي» ليس عند الشاعر فحسب بل حصل عند الأمير والملك أيضا وقد حلت روحه في روح ملك آخر من المصريين: « في مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد جلس الأمير على عرشه الذهبي وبعد هنيهة وقد انتهى المرتلون من إنشادهم وتوارت أنفاسهم بين طيات أثواب الليل وقف كبير الوزراء أمام الأمير: قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمص الأرواح من جسد إلى جسد حتى تبلغ الكمال وتصير إلى مصاف الآلهة وقد جاء الليلة طالبا الدخول عليك لبيسط تعاليمه أمامك.» (جبران، دت: ٤٧٢).

إن جبران مزج فلسفته بالليل وفي الليل يدور الحديث حول خلود الروح والحب ولا يكون الحديث عن فلسفة الانبعث إلا ليلا في محضر الأمير ولا تكون أيضا خلسة الشاعر إلا في رواق هيكل عشرتون: « وبعد سكينه شبيهة بغيوبة الأنبياء تلفت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ثم سأل قائلا: أين شاعرنا؟ فقد مر زمن ولم نره ... ماذا حلّ به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة؟ فقال أحد الكهان:

قد رأيتُه منذ أسبوع جالسا في رواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين نحو الشفق البعيد كأنه أضع بين الغيوم قصيدة من قصائده.» (المصدر نفسه : ٤٧٣). مات الشاعر ودفن في ظلال هيكل عشتروت: «غدا نقره في ظلال هيكل عشتروت المقدسة.» (المصدر نفسه : ٤٧٤) والأمير سائل الحكيم الهندي: «هل ترجعني الآلهة أميرا إلى هذا العالم وتعيده شاعرا؟.» (المصدر نفسه : ٤٧٠). وبعد مرور القرون وبالتحديد سنة ١٩٢٢ لا يكون التنبه لهذا الحلول الروحي إلا ليلا: «طلع القمر وألقى وشاحه الفضي على المدينة وأمير البلاد جالس في شرفة قصره ينظر إلى الفضاء الصافي مفكرا بمآتي الأجيال التي مرت متتابعة على ضفاف النيل مستوحا أعمال الملوك والفاخرين الذين وقفوا أمام هيئة أبي الهول... ولما اتسعت دائرة أفكاره وانبسبت مساح أحلامه... قال: فى نفسنا الليلة ميل إلى الشعر.. حقد الأمير إلى ندمه وقد استهوته نغمة تلك الأبيات ومعانيها... ثم سأل قائلا لمن هذه الأبيات ؟ فأجاب النديم: للشاعر البعلبكي. فأعاد هذا الاسم القديم الجديد إلى نفس الأمير رسوم أيام منسية وأيقظ في أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة.» (المصدر نفسه : ٤٧٦). إن فكرة التناسخ والتقمص عند الشاعر البعلبكي تريد أن تبلغ الإنسان إلى الكمال وأن ترفعه إلى مصاف الآلهة حيث الخلود وفعلا تحققت أمنيته وأمنية الأمير معا بانبعائهما ليلا على ضفاف نهر النيل وأمام هيئة أبي الهول. نلاحظ أن جبران مزج فكرة التقمص تارة أخرى بالأساطير ولكن هذه المرة ليس بعشتروت بل بأبي الهول حارس الأهرام.

هذا التوظيف الأساطيري في قالب قصصي تاريخي لفكرة التناسخ الفلسفية كان بحق موفيا لترسيخها في فكر المتلقي والقارئ لأعمال جبران. وكذلك في قصة «ملكة الخيال» نرى أيضا ما لليل من قوة في انبعاث أشباح الماضي عند خرائب تدمر التاريخية فبعد أن يبلغ الشاعر خرائب تدمر ويتأمل في مجدها الغابر في سكون الليل، فإذا بالأرض تميد والفضاء يهتز فيجد نفسه في رياض مصحوبا بجوق من العذارى فحينئذ تتداخل الأزمنة والأمكنة متمسكة بسكينة الليل ومهابتة في استحضار الأرواح والأشباح بين تلك الخرائب ذات دلالة تاريخية توظيفها لفكرة الانبعاث والخلود: «بلغت خرائب تدمر وقد نهكني السير فاستلقت على أعشاب نبتت بين أعمدة سلها الدهر... وصرت أتأمل بعظام أجلاها وهي مهدومة منقوضة ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابهة بارتداء ثوب السكينة شعرت بأنّ في الأثير المحيط بي سيالا يصرع البخور عطرا ويعادل الخمر فعلا فصرت أحس بأيد خفية تحلّ نفسي من

سلاسلها ثمّ مادّت الأرض واهتزّ الفضاء فوجدتني في رياض مصحوبا بمجوق من العذارى ينشدن تسيحة منسوجة من أحلام الحب.» (المصدر نفسه : ٢٩٠).

فلا يخلو الانبعاث من الامتزاج بفكرة الحب والليل والأماكن الموحية والفواحة بعبق الماضي، وإنّ الليل بدلالته الموحية زاد في رهابة الموقف وعمق الفكرة وأضفى جمالا سحرًا على الصورة الشعرية في النصوص.

النتائج

أفاد البحث النتائج التالية:

١- إن الليل قابل لأكثر من دلالة في قاموس جبران فهو يوحي بامتزاج وانصهار في الماضي واستدعائه واستحضار للأرواح والأشباح والأقنيم الثلاث (الحب والحريّة والثمرد) مخترقا الأزمنة والأمكنة كاشفا عن خلود النفس وأبديتها.

٢- إن الحب يكشف عن أسمى الحقائق ففيه تتجلى وتنكشف الستائر والأسرار وتبوح الحقيقة بسرّها المكنون لأنّ الليل هو نفسه من جنس الحقيقة فحقائق الكون والحياة والذات تتعري أمام هيئته. أنّه رغم ظلمته وغموضه ينطوي على الأسرار بائحا للمتحابين.

٣- وظف جبران الطبيعة ورموزها خاصة الليل خدمة للتعريف بفلسفته الصوفية ورؤيته العقديّة في الحياة من تناسخ وتقمص. فالأساطير (عشّوت، أبي الهول) تنبعث في الليل فتحيا فبذلك تتكرر حقيقة واحدة عبر الزمان والمكان فتحل في الأجساد مسترة بظلام الليل.

٤- إن الليل كاتم أسرار الحب وكل رموزه (البدر والسماء والغيوم) تتعاقد وتتعاون في التستر على أفعال المتحابين والعشاق. فبذلك تمتزج حقيقة الحب بالطبيعة والليل والأشباح والأرواح لتتصل بحقيقة خالدة أخرى وهي شمولية الحب وخلوده.

٧- إن الليل احترق حجاب الخلود والأبدية وامتزج به وأصبح جزءا منه فبالتالي كل ما ينتمي إلى الليل في قاموس جبران يصبح كالليل خالدا سرمديا.

المصادر

- ١- أبوفاضل، ربيعة بديع (١٩٩٢م)، الفكر الديني في الأدب المهجري، ج ٢، ط ١، بيروت، دار الجليل.
٢. أدهم، اسماعيل، (١٩٥٢م)، توفيق الحكيم، مصر: دار السعد.
٣. الحاوي، ايليا، (١٩٧٩م) في النقد والأدب، الجزء الرابع الطبعة الرابعة، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
٤. حبيب، بطرس، (١٩٩٥م) جدلية الحب والموت، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.
٥. حطيط، كاظم، (١٩٨٧م) أعلام ورواد في الأدب العربي، بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
٦. حسن، حسن جاد (١٩٨٥م) الأدب العربي في المهجر، قطر: دارقطني بن فحاعة. ٧٦- جبران، خليل جبران، دت، المجموعة الكاملة، بيروت: دار صادر.
٧. جبران، جبران خليل، دت، المجموعة الكاملة، بيروت: دار صادر.
- ٨ - الجيوسي، سلمى خضراء، (٢٠٠٧م)، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ترجمه عبد الواحد لؤلؤة، بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية.
٩. ديب، وديع، (١٩٩٣م) الشعر العربي في المهجر الأميركي، بيروت: دار العلم للملايين.
١٠. سراج، نادرة، (١٩٦٤م)، شعراء الرابطة القلمية، مصر: دارالمعارف.
- ١١- عباس، احسان، (١٩٨٢م) الشعر العربي في المهجرأميركا الشمالية، الطبعة الثالث، بيروت: دارصادر.
١٢. عبد الدائم، صابر، (١٩٩٣م) أدب المهجر، الطبعة الأولى، مصر: دارالمعارف
١٣. هلال، محمد غنيمي، دت، الرومنتيكية، القاهرة: نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٤. الفاخوري، حنا، (١٩٨٦م)، الجامع في تاريخ الأب العربي، ج ٢، ط ١، بيروت، دار الجليل.
١٥. ناعوري، عيسى، دت، أدب المهجر، الطبعة الثانية، قاهرة: دارالمعارف
١٦. نجار، اسكندر، (٢٠٠٨م) قاموس جبران، الطبعة الأولى، دارالسياقي.
- ١٧- هدارة، محمد مصطفى، (١٩٩٠م) دراسات في الأدب العربي الحديث، الطبعة الأولى، دار العلوم العربية.

نماد شب در ادبیات جبران خلیل جبران*

صادق فتحی دهکردی، استادیار دانشگاه تهران، پردیس فارابی

عبیر جادری، دانشجوی دکتری دانشگاه تهران، پردیس فارابی

چکیده

بدون شک جبران یکی از پیشگامان مکتب نمادپردازی در ادبیات عربی به شمار می رود هرچند آثار وی ویژگیهای مکتب رمانتیسم را داراست. شب در قاموس جبران، تقدس و جایگاه ویژه ای دارد شب از دیدگاه جبران افق های زمان و مکان را درنوردیده، گذشته و تاریخ و آینده را به هم پیوند می دهد. این نماد با توجه به فلسفه جهان شمولی وی و جاودانگی روح و اعتقاد به تناسخ ارواح و گرایش ژرف صوفیانه از زیباترین نمادهای جبران است. در این مقاله سعی بر آن شده است که این نماد با دلالتهای متعدد در آثار ادبی وی خواه آمیخته با عشق جهان شمول مقدس و خواه در آمیخته با اساطیر و خدایان (عشروت) و (ابو الهول) و خواه در آمیخته با گرایشات فلسفی و صوفیانه بویژه آفانیم سه گانه وجود (آزادی، عشق، ترمز) مورد بررسی و واکاوی قرار گیرد و با درنوردیدن زمان و مکان به بیان جاودانگی و ابدیت نفس پردازد. روش این پژوهش روشی تحلیلی - توصیفی است.

واژگان کلیدی: شب، نمادپردازی، جبران، ادبیات، رمانتیسم

* - تاریخ دریافت: ۹۴/۰۳/۱۰ تاریخ پذیرش نهائی: ۹۴/۱۰/۲۹